واقعنا المعاصر من خلال المعتقدات الشعبية

د. حشـلافـي لخضـر
دحمان سالم
حوة عبد القادر
جامعة الجلفة

على الرغم من التطور التكنولوجي الذي يشهده المجتمع البشري ، لا تزال الخرافات والمعتقدات الشعبية تسيطر وبقوة على فئات كبيرة منه ، مما ساعد الدراسات في علم الفولكلور على أن تطفوا – ولو بوتيرة بطيئة – على سطح عالم البحث ، ولعل السبب في تقدمها – ولو نسبيا- مرده إلى أن الدراسات الشعبية في الحقيقة نشأت في ظل الدراسات اللغوية وظلت مرتبطة بمنهجها القديم ، ومع ذلك بدأت تبرز في الساحة العربية إلى الوجود [1] أقلام علمية جادة تعمل على نفض الغبار على بعض الألغاز ورفع الغموض على أمور ظلت وإلى يومنا هذا عند الأغلبية الساحقة من الناس تعتبر من فضاء الغيبيات .

ولما كانت دراسة التراث الشعبي عملية ترتبط أصلا بالوازع الحضاري علاقته وطيدة بهوية الشعوب كما أكده روث بنيدكنت :" بأن الحضارة شيء أبعد من كونه حصيلة الآثار المتفرقة ، فقد نعرف شكل الزواج عند قبيلة من القبائل وقد نعرف طقوسها المرتبطة باحتفالاتها ، ومع ذلك فإننا لا نعرف شيئا عن حضارتها بوصفها كلا" [2] .

إن حديثنا عن المعتقدات في هذا السياق لن يكون مستقلا عن بقية الأجناس الأخرى لكن لا بد أن لا نتجاهل حقيقة أن للمعتقدات والخرافات مميزات وخصائص تجعلها أكثر شمولية من الأشكال الأخرى المكونة لمقومات شخصية الأفراد ، فالتطرق إلى موضوع المعتقدات سيجرنا حتما إلى التذكير بإشكالية طالما عانت وتعاني منها الدراسات العربية ، والمتعلقة بالاصطلاح الذي أصبح هاجسا يدفع بالباحث العربي إلى المغامرة أو الابتكار أو الانتحار في بعض الأحيان [3] إنه مصطلح الفولكلور وما يحمله من معاني ، جعلت التعاريف بالإجماع والاتفاق بين المدارس سواء أكانت عربية أم غربية لا تحصل على الإطلاق وإلى يومنا هذا، مما جعل تصنيف المأثورات الشعبية يختلف من مدرسة إلى أخرى ومن فترة إلى أخرى .

إذا تصفحنا جميع الكتب التي تتناول تصنيف الفولكلور على المستوى العالمي ورغم اتفاقها في المولد لهذا التراث الشعبي ، فإنها تختلف في نظام ترتيب مواد هذا الفرع الحيوي ، فالباحث أول ما يتأثر به في هذه العملية بتراث علم الفولكلور أو غيرها من المسميات التي تناولت هذا التراث بالدراسة والبحث إلى جانب اهتماماته الشخصية وميولا ته التي يميلها عليه تخصصه أو اختياره ، أو ربما حتى التشجيع الذي تقدمه الهيئات العلمية أوالحكومية مثل ما حدث في ظل حكم هتلر في ألمانيا عندما كانت تروج فكرة الجنس الآري باعتباره أفضل الأجناس ، فجل الكتب الذي ظهرت في هذه الفترة لا تخلو من فصل في هذا الموضوع ، في الوقت الذي لا يتصور وجود أية إشارة مسهبة إلى هذا الموضوع في أي مدخل معاصر لدراسة من هذا القبيل ، اللهم إذا استثنينا بعض المعتقدات المتعلقة بتفسير بعض الظواهر الجسمية ودلالتها على الشخصية الفرد أو مزاجه[4]

لم تعد عملية جمع المادة في علم الفولكلور جمعا عشوائيا غير منتظم كما عليه الشأن في المراحل الأولى بل بات من المؤكد إن لم نقل من الضروري على المدارس العربية وضع دليل تحترم فيه المقاييس والشروط العملية للقيام بهذه العملية فقد يبدو أن فيه تيارين بارزين ، تيار أمريكي – إنجليزي يركز على ميدان الإبداع في الأدب الشعبي (الشفهي منه) وتيار أوربي (جرماني أساسا) يركز على دراسة الحياة الشعبية ويقترب بذلك من مشكلات الأتنولوجيا وعلم الاجتماع وقد حاول دور سون المزج بين هذين التيارين ووفق في هذا إلى حد بعيد [5].

على ضوء هذا التقسيم وضع الباحثون المعتقدات في القسم الذي يجمع بين الأدب الشعبي والثقافة المادية وقد تناولوا مختصر الفـولكلور[6] الذي نشر سنة 1980

ولو ضمنيا بحيث قسموا موضوعاته إلى مايلي :

1) المعتقدات الخرافية والعقائد والممارسات.
2) العادات المأثورة .
3) المرويات المأثورة .
4) الأقوال الحكمية المأثورة

ولعل القسم الأول هو الذي يهمنا في دراستنا هذه ، لذا يتوجب علينا أن نشرح مفاهيمه بدقة وعناية ، فمن الملاحظ في مختلف الدراسات أنه يهتم في هذا المجال بالتفاعل الاجتماعي أكثر والذي يشكل عادات وتقاليد الشعوب والتي غالبا ما ترتبط ارتباطا وثيقا بمعتقدات شعبية عميقة الجذور عند ممارستها ، وحتما نستعرض أمثلة حية بحيث تعتبر[7] في حد ذاتها ميدانا فولكلوريا مستقلا بذاته .

فسواءا تعلق الأمر بالتصنيف الذي تعرضت له المدارس الغربية بما فيها الأمريكية أم ذلك الذي تعرض له الدكتور محمد الجوهري[8] باعتباره أحد رواد الدراسات الفولكلورية العربية والذي صنف كالآتي :

1) المعتقدات والمعارف الشعبية .
2) العادات والتقاليد الشعبية .
3) الأدب الشعبي وفنون المحاكاة .
4) الفنون الشعبية والمادية .

مفهوم المعتقد الشعبي:

لقد كثرت الظواهر المختلفة وتعددت من بيئة إلى بيئة ومن مجتمع إلى آخر إذ لا يمكن إنكار ما تتركه الحياة الأولية من بصمات ، ومعتقدات وأفكار تجذرت في أعماق النفس الإنسانية وفي حياة الناس ، وسلوكا تهم وتصرفاتهم .

فمنذ أن وجدنا في هذه الحياة وجدنا أنفسنا نعيش في مجتمع محاط بأفكار وطقوس وعادات ومراسيم شعبية ضاربة بجذورها في اوغال القدم ، وعبر أجيال غابرة كان لها الأثر العميق في وجدان الفئات الشعبية .

فالمعتقدات أخذت جانبا كبيرا من حياة الشعوب واختلفت حسب بيئاتهم ومبادئهم أحاطت بهم في شتى ميادين الحياة ، وأول ما قد يا يتبادر في تفكيرنا هو التساؤل عن أصل هذه المعتقدات : " عما إذا كانت قد نبعت من معتقدات دينية ثم تحولت في صدور الناس إلى أشكال أخرى بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال " .[9]

ولكي نحيط بهذه الظاهرة فلابد في البدء من أدلال هذا المفهوم لغة واصطلاحا ومعرفة تطور دلالاته وقضاياه .

1- التعريف اللغوي :

إن البحث في المعاجم والقواميس ، يثبت أن للمادة اللغوية معان مختلفة الاستعمال من خلال أصلها الاشتقاقي لان أصل الميزان الصرفي لكلمة اعتقد هو عقد " فعل ثلاثي مزيد بحرفين : الهمزة والتاء ، على وزن افتعل " لها أوجه استعمالات مختلفة وأنها ترمي في الظاهر إلى معنى يكاد يكون واحد ، يتمثل في:الإيمان والتصديق في أمرما والعقيدة هو ما عقد وصدق عليه المرء بضميره وعقله فلا يحتمل فيه الشك أو الكذب أوالتراجع أو التنازل عليه فالمعتقد إنحاز الفكر[10]

وقد ورد استعمالها في المعاجم اللغوية القديمة والحديثة بشكل ظاهر، ففي لسان العرب [11] وردت على النحو التالي :

عقد ، العقد : نقيض الحل ، عقده ، يعقده ، عقدا وتعقادا ، وعقده :

أنشد ثعلب :

لا يمنعنك من بغا الخير تعقاد التمائم

واعتقده كعقدة قال جرير :

أسيلة معقدة السمطين منها وربا حيث تعتقد الحقا يا

واعتقد الدر والخرز وغيره : إذا اتخذ منه عقدا قال عدي بن الرقاع

وما حسينة إذا قامت نودعنا للبين واعتقدت شدرا ومرجانا

عقد التاج فوق رأسه وإعتقده : عصبه به أنشد ثعلب :

يعتقد التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وكل ما يعتقده الإنسان من العقار ، فهو عقدة له .

اعتقد ضيعة ومالا: أي اقتناهما اعتقد كذا بقلبه وليس له معقود أي عند رأي وفي الحديث أن رجلا كان يبايع وفي عقدته ضعف أي في رأيه ونظره مصالح نفسه.

اعتقد الشيء : صلب واشتد .

عقد قلبه على الشيء : لزمه والعرب تقول : عقد فلان ناصيته إذا غضب وتهيأ للشر وقال ابن مقبل :

أثابوا أبو أخاهم إذا أرادوا زياله بأسواط قد عاقدين النواصيا

عقد لسانه يعقد عقدا وفي لسانه عقدة وعقد أي التواء.

عقد كلامه : أعوصه عماه وكلام معقد أي مغمض .

والعقدة هي العقد وهو ما عقد عليه ما يمسك الشيء ويوثقه الجماعة على البلد [12]

أما في المنجد الإعدادي [13] فتعني الكلمة ما يلي :

اعتقد، اعتقادا، عقد: الأمر، صدقه، عقد عليه قلبه وضميره: تدين به.

اعتقد أن ذلك ممكن : ظن ورأى أنه ممكن .

عقد ، عقدا ، الحبل : نقيض حله .

عقد البيع أو اليمين : أحكمه .

عقد الخيط : جعل فيه عقدة .

عقد العزم على : صمم النية على .

عقد القوم اجتماعا : اجتمعوا للتباحث والتشاور .

عقد الأمل على : بناه على ، اتكل على .

عقد الزهر : انضمت أجزاؤه فصار نمرا .

عقد العسل ونحوه غلظ .

عقدة ، العقدة .

الشعبيـة:

أما كلمة الشعبية فهي مشتقة من كلمة الشعب التي تكررت – وتقريبا – في جميع أمهات اللغة بنفس المعنى ، فشعب الرأس هو شأنه الذي يضم قبائله وفـي الرأس أربع قبائل[14] وهو القبيلة العظيمة ، الحي العظيم يتشعب من القبيلة وقيل هو القبيلة نفسها ، والشعب أبو القبائل الذي ينتسبون إليه أي جمعهم [15] ولعل هذا الطرح أيده القرآن الكريم فورد في التنزيل : " وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " [16]

وهو القول الذي ذهب إليه البعض بأن كلمة الشعوب بلفظ الجمع غلبت على جيل العجم ، يذهب البعض الآخر مثل ابن عباس – ض – إلى القول الشعوب الجماع والقبائل البطون ، بطون العرب وسواءا أصاب الأول أم الثاني في تحديد المفهوم الصحيح لهذا المدلول ، يبقى أن العرب أو العجم نشئوا في شكل قبائل ، اجتمعوا تارة واختلفوا تارة أخر بحكم ظروف وعوامل مختلفة ، وهذا ما يؤكده ابن السكيت في تحديده لمدلول كلمة شعب لغة بأنها تكون بمعنيين

تكون إصلاحا وتكون تفريقا ، ومن منظور فسيولوجي محض يبدوا وان التعريف الذي باشرنا به هذا الطرح يحمل بين طياته نسبة عالية من الصواب إذا ما شرّحناه تشريحا علميا فقد قال الشيخ ابن برى : " الصحيح في هذا ما رتبه الزبير ابن بكار وهو الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة " [17]

قال أبو أسامة هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان فالشعب أعظمها مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من القبيلة لاجتماعها ثم العمارة وعي الصدر ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة وهي السياق[18]. إن المتمعن في قول الشيخ ابن البري أو أبي أسامة وعلى الرغم من اختلاف شكلي بسيط يعي حقيقة بأن الشعب قديما كان يمثل رأس مال الهرم الذي يقابله رأس الإنسان وما يحمل من أهمية في احتوائه على الدماغ مركز تفكير الإنسان وثقله ، فهو النواة الأول التي تتفرع منها كل الأقطاب الأخرى فهو ببساطة رمز الوحدة والقوة .

فالملاحظ وفي زمن ليس ببعيد انقلاب الموازين بحيث ما كان في الأعلى أصبح في أسفل الهرم أو في قاعدته ، فأصبح ينعت إلى كل ماهو بسيط أو رديء، أو غير رسمي بالشعبي أو الشعبية ، ولعل هذا الانقلاب البطيء يرتبط بتلك التحولات التي خضع لها المجتمع البشري أو بعبارة أخرى بالنتائج السياسية أو الاجتماعية أو التاريخية التي فرضها الصراع الإنساني ولا يبدوا المعنى مخالفا في الثقافات الأجنبية ونخص بالذكر اللغة الفرنسية ، بحيث حدد مفهوم الشعبية في مختلف القواميس والمعاجم بنفس المدلولات فكلمةPopulaire في قاموس روبيرالصغير[19]Le petit Robert تعني الذي يملكه الشعب أو صادرعن الشعب خاص بالشعب سواء أكان معتقدات أم عادات أو ما يبدعه الشعب ويستعمله ، ولا نجده عند الطبقة البرجوازية أو عند الناس المثقفين ، فهو إقصاء شريحتين من المجتمع كالبرجوازيين والمتعلمين على حد التعريف الذي ورد في القاموس السابق الذكر يعني أن الشعب يكون أصلا وفقط من الفقراء والجاهلين .

الحق أن أمام هذا الزخم من التعاريف والمفاهيم اللغوية والاصطلاحية سواء المتقدمة أو المتأخرة ليس هناك أمر يبعث على القلق ، لكن عندما يطرح هذا السؤال على المفكر أو الباحث – وفي أي اختصاص – إلى ما يشار بالشعب عندما يرجع إليه ؟ فهل نفكر في الفلاحين والبسطاء كما الشأن بالنسبة للأكادمية ، هل نفكر في الطبقة الكادحة ونقيضتها العليا أم في الفئات الجاهلة وما يقابلها من طبقة مثقفة أو أشخاص أفظاظ ، وما يعاكسهم من أناس أو النخبة في السلطة والمال ، هل سنرجع إلى التكتلات الشعبية مثلما نقوله للألمان الجرمان والبلونيين والروس (سلاف)، هل نفكر في الأمة والعرف وفي نظام الروابط الذي يساعد على الربط بين الأفراد بلغة واحدة وتاريخ موحد وأنظمة مشتركة ،هل نشير إلى الشعب وعلاقته بالسيادة ؟ [20]

ليس من السهل أن نجيب في مكان أي دارس أو مفكر ولا باحث على هذا السؤال ، ولا يحق لأي منا أن يجرد فئة تعيش في مجتمع ما من صفة الشعبية مهما كانت مرتبتها الاجتماعية أو الثقافية ، أو منصبها السياسي ، بأن واقع الأمر يجعل الناس يتقاسمون نفس الميزات أثناء ولادتهم ولأن التجارب اليومية وما تحمله من أخبار تتعلق بالعادات والمعتقدات والفوكلور لا تستثني فئة من الفئات كما سبق وأن أشرنا إليه.

والذي يهمنا وراء كل هذا في كلمة " الشعبية " التي كان لزاما علينا الوقوف عندها بالحديث عن المعتقدات ، مما أشار إليه الدكتور محمد الجوهري قائلا بالحرف الواحد : " تدل صفة الشعبية هنا على ما تدل عليه عبارة الأغاني الشعبية أو العادات الشعبية أي أننا نقصد المعتقدات التي يؤمن بها الشعب في يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي " [21] وقد يفهم من كلمة الشعبية كصفة ألحقت بالثقافة عند المفكر فايس كل ما تقبله الشعب وتبناه وتحمله [22]

التعريف الاصطلاحي:

إن التعريف الاصطلاحي للمعتقدات الشعبية يؤكد حسب الدراسات التي عمّت علم الفولكلور ، التغير الذي طرأ على هذا المصطلح ، فقديما كانت المعتقدات تسمى بالخرافات أو الخزعبلات خاصة عند رجال الدين ، لأنها لم تكن تمثل لهم أكثر من مفاهيم وأفكار لا علاقة لها بالدين .

ولم يكن هذا التغير سائدا في اللغة العربية فحسب ، بل شمل حتى اللغات الأخرى ففي الإنجليزية مثلا: كان يطلق عليها قديما اسم Superstitions ثم أصبحت تسمى في ما بعد Folk Belft [23]

والمعتقدات الشعبية ليست كباقي الألوان الشعبية الأخرى ، بل تعد أصعبها دراسة ، لأنها تتعلق بالمشاعر والأحاسيس العميقة ، اتجاه العوامل والظواهر المؤثرة على النفس الإنسانية المتعلقة بالعالم الروحي والفوق طبيعي : " والمعتقد قناع كاشف يختلج في نفوس الشعب من إحساس وشعور وفرح وخوف وإيمان وتطير خاصة إذا تعلق الأمر بالعالم الروحي أو بعض مظاهر الواقع المعيشي [24]

فالمعتقدات الشعبية راسخة في قلوب الناس ، تؤثر على نفوسهم وترسم لها مخيلاتهم أشكالا مختلفة ، وهي لا تلقن من الآخرين ولكنها تختمر وتتشكل بصعوبة ويلعب فيها الخيال الفردي دوره ليعطيها طابعا خاصا .

ولم تأتي لهذا الوجود صدفة أو في مرحلة تاريخية معينة بل هي مزيج من الحضارات الغابرة كالحضارة الفرعونية والحضارة القبطية والحضارة الإسلامية وحضارات الشعوب الأخرى [25] .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار معارف الشعبية التي يعبر بها الإنسان عن سلوك إجتماعي أو قضية أخلاقية أو حرفة أو طب سواء إزاء الطبيعة أو المجتمع البشري بمثابة الوجه العملي الشعبي إما نتيجة تجربة حدثت بالصدفة أو بهروب مما يفزع الإنسان ويخيفه أملا في أن يحقق شيئا أفضل وأحسن [26]

فالمحلل لهذه الأطروحة يخرج بحقيقة مفادها أن المعتقدات كانت شعبية أو رسمية ليس وليدة حضارة معينة أو ديانة سماوية أو وضعية ولا زمان محدد ، ولا تقتصر على المجتمع البدائي ولا المتطور فهي عبارة عن شجرة ظاربة الجذور في الماضي متفرعة الأغصان في الحاضر لا يمكن قطع ظاهرها عن باطنها ، وهي بمنظور أنتروبولوجي نتاج المراحل الفكرية الأولى للحضارة الإنسانية التي قبلت بمظاهر مراحل الحياة الجديدة لكن لم تقبل بالتخلي نهائيا عن خصائصها القديمة التي لا يزال الإنسان المعاصر يتغذى منها وبها ، هذا الغذاء الذي تشكاله رموز بدائية تجسدت في مختلف أنماط حياته ليتعامل معها برفق ويذهب به الأمر إلى حد الاستشهاد في سبيلها في أحيان أخرى[27].

وعليه فإن المعتقد الديني أو الشعبي هو أساس التفكير الرمزي وينطبق على الأساطير والطقوس ، وتنتج المعتقدات في بعض الأحيان من جراء مواد عندما يشترك فيها كائنان تخلق بينها رابطة قوية يمكن أن تسمى بالمقدس ، ونفس هذه المعتقدات يمكن أن تكون سببا في خلق مشاكل للتفكير الرمزي كتلك المتعلقة بالأماكن المحظورة أو التي ينبعث منها الرعب [28]

أما من جهة الفن فالمعتقدات: " تعتبر شكلا رائجا من أشكال التفكير الرائج بين الناس يعكس طريقة تخمينهم وطبيعة أفكارهم ومواقفهم إزاء أحداث وأماكن خاصة وهي إحدى ميادين التراث الشعبي الرائجة والمهمة جدا [29]

وبذلك استطاعت المعتقدات أن تشكل عنصرا من ثقافة المجتمعات وأن تتوارث من جيل إلى أخر رغم مرور الزمان.

خصائص المعتقدات :

كثيرا ما تتشابه الانتروبولوجيا بالفلكلور الذي ربطه Jhon thems الآثار الشعبية القديمة Popular Antiquités وفي مقدمة هذه الآثار المعتقدات الخرافية التي لا يزال يتمسك بها إنسان القرن الواحد والعشرين ويعدها موروثا قدسته الحياة الموغلة في القدم[30] مما جعل هـذا الجانب من حياة الإنسـان ينفرد بميزات وخصائص قد تفتقر لها الأجناس الشعبية الأخرى أوقد توجد فيــها بنسبة اقل .

فما هي هذه الخصائص ؟ يرى الفيلسوف هيوم بان المعتقدات أكثر النشاطات الفكرية تشعبا وقد أيد هذا الاتجاه قرنا من الزمان فيما بعد برتران روسيل [31]

فقد نذهب مذهب هذين العالمين ونوافقهما ربما بالنظر إلى ذلك الزخم من التعارف التي استعرضت في شان المعتقد ومرد ذلك إلى التضارب وعدم الاستقرار في تحديد المفهوم ، وقــد نثور عليهما إذا علمنا بان الإنسان متشعب من جانبيه السلوكي والنفسي ، وكل ما يصدر عنه إلا ومعقد .

إن المعتقدات خبيئة في الصدور، من الصعوبة بمكان الكشف عنها ، لذا لا يمكن إن نتصور فئة أو فرد أو مجتمعا لا تؤثر فيه المعتقدات ، و حتى وان تبدو منظومتها والممارسات الدينية في المجتمعات المتطورة على عكس الأخرى القبيلة المتخلفة ترتكز على قاعدة مستقرة ، فهذا لا يعني انعدام الحالات في عالم المجهول والمبهم [32] ، بل أكثر من هذا فقد أثبتت البحوث بأن المعتقدات قد وجدت طريقها إلى من توصلوا إلى أسمى المراتب والمناصب في العلم والمعرفة ، وقد كان يعتقد أبناء القرن التاسع عشر أن التفكير قبل المنطقي خاصية ينفرد بها منعدموا الثقافة أو بعبارة أخرى الأوساط الشعبية فإن الأغلبية الساحقة من المجتمع تؤمن دائما بما هو قديم في شكله أكثر مما هو حديث ، ومن الأمثلة الحية التي يمكن أن تستشهد بها هو اعتقاد المرء في كتاب مخطوط وما يحمله من بركة على عكس ماهو مطبوع ، وقد يؤمن في الجلوس بقرب ظريح أو والي يمسح بترابه ويغتسل به متنكرا وصفة طبية يقدمها له أكبر المختصين في الطب [33] .

من هنا يبدوا إن المعتقدات التي فرضت نفسها في يوم مضى ، لم تعرف ضعفا ولا تراجعا بل لا زالت تتعمق لتعطيل الميكانيكية العقلانية والعملية ، ولو في أثواب وأشكال أخرى تتناسب ومستجــدات العصر ، فأصبحت رموزا وإشارات أخذتها على عاتقها دول حديثة وتريد تمريرها بقنوات ، ولعل التفسير الوحيد لهذا الالتحام الموجود بين الإنسان والمعتقد يعود على التعامل الفطري الخرافي العقائدي للإنسان مع الظواهر الاجتماعية والطبيعية قديما ، فهل يسأل سائل : هل يمكن أن تقف يوما الحضارة المادية بجناحيها العلمي والفكري أمام هذا التواصل الذي خلقته ولا تزال تخلقه المعتقدات قديما وحديثا ؟

فالإجابة عن هذا السؤال تفرزها متناقضات الحياة المعاصرة والصراع بين الجانبين المادي والديني ، فالعالم الديني في وقتنا الراهن يمر بأزمة حادة لأسباب مختلفة خاصة بالتصنع والحداثة والنهضة العلمية ودور الإعلام ، وبهذا رسمت الإنسانية لنفسها أربع خرائط واضحة (معتقدون ، غير معتقدين ، ممارسون ، غير ممارسين) [34]، فالدين تعتريه بعض التغيرات التي تحدث

تراكما، ينتج في هذه الأساطير والمعتقدات والطـقوس في الوقت الذي يحتك فيه المجتمع مع جيرانه ومحتليه ، فتظهر إلى الوجود معتقدات تتناسب مع حالات عدة (كجلب الأمطار أو ضمان المحصول الزراعي ، أو الحصول علي حماية ..) والمعتمدة في الوسـط الشعبي على وساطات مافوق الطبيعة قد يراها المثقفون ناتجة عن طبيعة دينية[35] .

لا يمكن تصور مجتمع بـدون نظام المعتقدات ، إذ أن اختلاف الثقافات فيما بينها يحكمها محتوى هذه المعتقدات ، ولعل أحسن مثال يمكن الاستشهاد به في هذا المجال هو ما أفرزته الحضارة الجديدة في المجتمعات المتقدمة من معتقد ديني جديد (scientologie) الذي أصبح ينافس الديانات الأخرى وقد جلب إليه عددا لا يستهان به .

إن خلود المعتقدات في ذهنية المجتمعات في حكم الرواسب الثقافية التي أثبتت وجودها لا تسمح لأي شخص أو سلطة أو هيأة كانت سياسية أو عسكرية القضاء عليها ، وربما هذا هـو السر في انتشـارها بقوة رغم ما تعرفه من التحولات في الشكل ، فلو عدنا إلى الحضارة الفرعونية لعثرنا على أمثلة حية تشهد على ديمومة هذه المعتقدات ، فبمجيء المسيحية إلى مصر أزالت عبادة إيزيس للوثنية ، واندثرت معابدها ، ولكن استمرت أسطورة إيزيس فـي معتقد الفلاحين وكل ما فعلوه ، أنهم أبقوا طقوسها الأسطورية (عادة الاحتفال) وانفصلت تلك عـن الأسطورة وبقيت عادة الاحتفال بليلة النقطة عبر الفتح الإسلامي وإلى يومنا هذا.

إن المعتقدات لا تلاحظ فـهي تتفق في حساسيتها وفي كونها تفتقر لعنصري العقلانية والمنطق بدءا بتفكير الإنسان البدائي الذي كان عاجزا على تفسير الظواهر الطبيعية الأمر الذي دفع به إلى التقديس والتمجيد للبعض منها ، وصولا إلى التفكير الديني الذي يحتوى على عنصرين بارزين يسيران في نظر رجال الدين ، سيرورة هذا الجانب في حياة المجتمعات ، إنها المعتقدات والطقوس الدينية ، ومن هنا تتضح شمولية المعتقدات باعتبارها تجسيدا لأفكار وأحاسيس الناس إزاء الظواهر الطبيعية العادية والشادة كتصوراتهم عـــن الزلزال والبرق والخوف والظواهر النفسية كالأحلام والنوم والموت ورؤية المستقبـل والحياة بكل أنواعها ووسائلها المختلفة ويدخل ذلك الاعتقاد في الأحجار والمياه والنباتـات والحيوانات واللحوم والأشكال والصور والكلمات والأعداد والتراتيل التي يسود الاعتـقاد بشأن تأثيرها على تلك القوة فوق الطبيعة وإخضاعها لإرادة الإنسان [36]

قد نضيف إلى ما أشرنا إليه من خصائص ما يجعل المعتقدات تتسع وتختلف عن بقية الأجناس المكونة للمأثور الشعبي، بحيث يمكن لهذه المعتقدات وبحكم مرور الوقت من خلال ما يعرفه المجتمع من حداثة ومستجدات أن تعرف شيئا من الوعي وهذا ما تسجله تصورات الأطفال خاصة ، فـها هي الباحثة الشعبية الإسبانية Angles roqué تروي لنا قصة مع ابنها في الرابعة من عمرة عندما سألها عن خالته ELSA وعدم إنجابها ورد على سؤاله تلقائيا بأن البومة لم تمنحها أطفالا وأصر على الذهاب ساحـة الكنيسة وأخذ يصيح هناك طالبا إياها أطفالا لخالته ليلفت انتباه المارين .

عشرون سنة تمضى وتتاح الفرصة للباحثة في إحدى العبادات أن تسمع امرأة تتحدث لطفلة لا يتعدى عمرها أربع سنوات قائلة لها قريبا ستهدي البومة طفلا لأمك فترد عليها الطفلة " ليس البومة التي تأتي به بل أنه موجود في بطن أمي"[37] .

وهناك خاصية أخرى بحيث لا تبعث المعتقدات دائما من الوسط الشعبي كما يعتقد أغلبية الناس ، ففي بعض الأحيان تستوعبـها الثقافة العامة قبل الشعبية وهذا ما يعكسه معتقد " الوحـم " أو الرغبة عنـد المرأة الحامل في المجتمع الإيطالي إبتداءا مـن القرن 15 م الذي أخذ بعدا ثقافيا راقيا قبل أن يبدأ زحفه إلى الثقافة الشعبية ، وهـذا ما تبنته الباحثة الإيطالية في إحدى مقالاتها [38] والتي تشير فيها إلى رأي مخالف قبل ثلاثة قرون ، وقـد أثاره العالم Gustave Witkowski بأن النساء كانت أكثر ارتباطا بـهذا المعتقد (الوحم) ، وقت كان الدليل العلمي يرفض أن تكون المرأة قادرة بواسطة مشاعرها أن تغير

الجنين ، لكن أبحاث العلم في القرن 18 م أثبتت صحة الرأي الأول ، إن مرور هذا المعتقد من الثقافة العالمة إلى الثقافة الشعبية دل على وجود سحر الأجيال الذي لم تسيطر عليه التقديرات الكلينكية وعلى العكس من ذلك فإنه يثبت وجود ضمير أنثوي شعبي .

لايسعنا في آخر الأمر ، إلا أن نقدم تصورا عاما عن المعتقد الذي لا يمكن الحديث أو الإشارة إلى شيء له علاقة بالإنسان بعيدا عنه ، فهو جزء لا يتجزأ من التراث الشعبي للأمم ، يطبع بطابع ثقافي فكري عقائدي خاص ، وبالتالي فهو ترجمان حكيته الطقسية اتجاه كل ما ينشر حوله ويحيط به من قضايا ومظاهر ومهما كان اتجاه هذا التراث علميا ، سياسيا أو عقائديا أو إيديولوجيا فلا يمكن بأية حالة من الأحوال الانسلاخ منه .

فالمعتقدات كما يقول الدكتور محمد الجوهري : " خبيئة في صدور الناس وهي تلقن من الآخرين ولكنها تختمر في صدور أصحابها وتتشكل بصورة مبالغ فيها أو مخففة ، يلعب فيها الخيال الفردي دوره ليعطيها طابعا خاصا وهي مع تمكنها في أعماق النفس الإنسانية موجودة في كل مكان سواء عند الريفيين والحضر وعند الجهال كما عند الذين بلغوا مرتبة عالية من العلم والثقافة . (39)

فمن هذا المنطلق نستنتج أن المعتقدات إذا كانت تقترب في الأجناس والأخرى كالعادات والتقاليد والحكايات الشعبية من حيث الخصائص فإنها حسب هذا الباحث تنفرد بميزات تكون في نظره أقرب إلى الأسرار التي يصعب على الإنسان أن يبوح بها إلا في حالة اللاوعي أو الانفعال ، يتوارثها الأفراد داخل الأسرة الواحدة وقد تتفاوت نسبة التعامل معها من فرد إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى وقد يزيد من تشعب وتداخل هذه المعتقدات خيال الإنسان الذي ما فتئ يبدع فيها رغم قدمها في التاريخ البشري .

قســـم الهـــوامـش:

[1]– د. نبيلة إبراهيم: قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة بيروت 1974 ص 20

[2] _ Ruth benedict .paten of culture Newyork. 1948. p 43

[3]– المنصف وناس الخطاب العربي والتناقضات الدار التونسية للنشر ، 1992 ص 13 .

[4]_ د.محمد الجوهري الدراسة العملية للمعتقدات الشعبية،دار الثقافة والتوزيع بالقاهرة– 1983 ج1، ص39

[5]_ دور سون نظريات الفولكلور (ترجمة د محمد الجوهري وحسن الشامي) الناشر دار الكتاب الجامعية القاهرة 1972 ص 76 .

[6]– فوزي العنيل ، الفولكلور ماهو ؟ القاهرة 1977 ص 06

[7]_ علياء شكري – الثبات والتغير في عادات الموت في مصر منذ العصر المملوكي حتى العصر الحاضر بون 1986 ص 30

[8]– محمد الجوهري – الدراسة العملية للمعتقدات الشعبية ص 11 .

[9]_ المرجع نفسه ص 42

[10]_ محمد مرتضى الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ط 1 . 1306 ص 234 .

[11]_ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرما ابن منظور الإفريقي المصري لسان العرب ج 3

[12]_ على بن هادية بلحسن الجيلالي ، القاموس الجديد تقديم محمد السعدي المؤسسة الوطنيةللكتاب ط 7 – 1991 ص 687

[13]– المنجد الإعدادي– ط 4 دار المشرق س م م. بيروت. لبنان 1984 ص 52 (410 – 411)

[14]_ ابن منظور – المرجع السابق، المجلد الأول ص 498

[15]_ – محمد المرتضى الحسيني الزوبيدي – تاج العروس من جواهر القاموس – ص 378

[16]– – القرآن الكريم: سورة الحجرات الآية 13

[17]– ابن منظور المرجع السابق ، ص 499

[18]– - نفسه ص 498

[19]– قاموس روبير الصغير Petit Robert

[20] - Jean cuissière Lq Trqdition Populaire que je sis P.U.F.Pqris 1981-p12-13 □

[21]_ محمد الجوهري – المرجع السابق – ص 47

[22]– أيكه هرلتكراس – قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والفولكلور – طرجمة – د – محمد الجوهري – د . حسن الشامي ، دار المعارف بمصر ، 1973 ص 159 .

[23]– محمد الجوهري – الدراسة العلمية للمعتقدات – ص 42

[24]_ سرير إلهام – توظيف التراث الشعبي في الرواية الجزائرية – دارسة لهجية – إشراف : د– التجيني بن عيسي – تلمسان 2001 – ص 53 .

[25] – محمد الجوهري – الدراسة العلمية للمعتقدات – ص 47

[26]– – أحمد رشدي صالح – الأدب الشعبي – مكتبة النهضة المصرية – 1971 – ص 123

[27]_ شوقي عبد الحاكيم – الفولكلور والأساطير العربية – دار ابن خالدون – بيروت – ط 2–1983 ص11

[28] _ Alain testart des mythes et des croyances (Esquisse d'une théorie Générale) ed de la maison de Sciences de l'homme paris 1991 P31

[29]– سرير إلهام – توظيف التراث الشعبي في الرواية الجزائرية ص 53 .

[30] – د . أحمد كمال زكي – الأساطير دراسة حضارية مقارنة بيروت – دار العودة ط 2 1979 ص44

[31] _ Pierre boute et Michel Izard – dictionnaire de l'ethnogie et de l'a anthropogre P U F paris 1991 p 185

[32] _ Bryam Wilson – la scientologie une analyse et comparaison de ses systèmes et doctrine religieux – université oxford .1987 p02.

[33]_ أحمد أمين . قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية . لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1953 . ص 116 .

[34] _ Houssem Souaid Lecroyances et les praiaues religieux des femmes yblos pris 1987

[35] _ Bryan Wilson Op Cit – p 2□

[36] _ أحمد بن نعمان . سيمات الشخصية الجزائرية من منظور الأتربولوجية النفسية . المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1988 ص 316

[37] _ Maria angles roque la cigogne et la chouette en cas tille – symboles de vie et de mort – ethnologue française tome 19 .Armand Collin 1990 .p 375-376 .

[38] _ Claudia pancimo la croyance aux en vies maternelles entre culture savante et culture populaire .Ed Armand colline. Ethnologie Française TOME 17. 1997 - P 155 - 156.

[39]– محمد الجوهري، المرجع السابق، ص 41.